Enlightenment collection's
ISSN 2716-7852
V:12, N°:2, (2022), P.P :183-192

سلسلة الأنوار
ISSN 2716-7852
المجلد:12، العدد:2، (2022)، ص.ص: 183- 192

الإجازة العلمية بالمغرب الأوسط ما بين القرنين 13 –15م: ذاكرة علم وإشهاد بمعارف

The scientific license in the Middle Maghreb between the 13th-15th centuries AD: memory of knowledge and testimony of knowledge

سلطان ثابت

جامعة قسنطينة2، (الجزائر).thabet.soltane@univ-constantine2.dz

تاريخ الاستلام : 2022/08/04 ؛ تاريخ القبول : 2022/10/15 ؛ تاريخ النشر : 2022/11/10

الملخص

شهد المغرب الأوسط ازدهارا فكريا كبيرا خلال القرنين السابع والتاسع هجري (13/15م)، إذ شهد المغرب الإسلامي عموما في هذه الحقبة إبداعا حضاريا رفيعا وذلك بفضل وحدة اللغة والعقيدة في إطار الإسلام بينه والمشرق والأندلس، وسبّب هذا الازدهار الذي شهدته حواضر المغرب الأوسط نضجا لا مثيل له بفضل الرحلة العلمية التي عرفت رواجا واسعا، حيث كان طلبة المغرب الأوسط لا يكتفون بما يتلقونه من العلوم في مدينتهم، بل يطوفون البلاد للقاء العلماء والأخذ عنهم في وقت كان السفر شاقا والرحلات متعبة، وعلى هذا الأساس كان الكثير يرتحل إلى أقطار المغرب الأوسط ليدرسوا بحواضره وإلى بلاد المشرق الإسلامي ليأخذوا من شيوخه العلم للحصول على الإجازات التي لا تعطى إلا بعد ملازمة الشيخ أياما وشهورا، حيث يمنحها كبار العلماء لطلبة العلم والتي تعتبر شهادة يتسنى لهم من خلالها الظهور بمظهر العارف.

الكلمات المفتاحية: الإجازة العلمية، أدب الرحلة، المغرب الأوسط، الحركة الفكرية، الأرشيف.

Abstrac

Within this framework of this study ،we treated the scientific license (IDJAZA) in the central Maghreb between the VIIth and the IXth century of the hegira (13. J-C. / 15 J-C) ،Which contributed to the continuation of the intellectual value and scientific communication between generations ، licenses (IDJAZAT) are considered to be a symbol of science and an honor for students ، and were an important aspect of the intellectual movement.

Through our objective which we sought to know the scientific value and its impact on the intellectual movement ،and to know some of the licenses (IDJAZAT) exchanged between the scholars of the central Maghreb ، of the Maghreb ،of the Islamic East and Andalusia.

Keywords: The scientific license (IDJAZA) ، The central Maghreb ،The intellectual movement. The archive.

مقدمة:

تعد الرحلة العلمية من أبرز سُبل توطيد العلاقات الثقافية والفكرية والاجتماعية بين المغرب الأوسط وبقية العالم الإسلامي، كما تشكّل في الآن نفسه جسر لتلاقح الأفكار بين نخبه العلمية وعلماء أقطار بلاد المغرب والمشرق والأندلس، وقد كان المقصد الرئيسي من تلك الرحلات هو طلب العلم من أصوله الأولى على يد كبار منظريه وأعلامه، ومن ثمّ تحقيق السند العالي في تحصيله، وعادة ما كانت تتوج هذه الجولات العلمية بـ **"إجازات"** يشهد فيها الشيوخ والعلماء الذين تتلمذ عليهم طلبة العلم بتمام التحصيل عن الأواخر، وضبطهم الكامل لمختلف العلوم التي تلقوها منهم.

ولم يبق نظام الإجازة هذا حكرا على البلاد المشرقية التي كانت القبلة الأولى لطلبة العلم المغاربة، بل أنه صار أحد الخصائص المميزة للحياة العلمية في بلاد المغرب كلها، وإن كان يمتد في جذوره إلى ما قبل الفترة الموحدية، إلاّ أنه لم يشهد أوجه إلاّ في عهد الدول التي ورثتها بعدها، وهو الأمر الذي جعلنا نختار هذه الفترة كحيز زماني لبحثنا هذا الذي عنوناه بـ "**الإجازة العلمية في المغرب الأوسط خلال القرنين (7هـ- 9هـ /13 - 15م)**"، والذي سعينا من خلاله إلى تعقب جذور هذا النظام في المغرب الأوسط، ثمّ تقفي ما استجد على ملامحه من تغيرات وتطورات خلال هذه المرحلة. وهنا كان لزاما طرح التساؤلات التالية: ما المقصود بالإجازة العلمية؟ وما حجم القيمة العلمية التي نستمدها منها في التأريخ الثقافي للبلدان؟ وما دور الإجازة في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية بالمغرب الأوسط، بالتالي كيف أسهمت الإجازة العلمية في توسيع العلاقات الثقافية للمغرب الأوسط مع مختلف الأقطار الإسلامية في المشرق والأندلس، وفي تقوية التواصل الفكري والحضاري معها؟

1- مفهوم الإجازة:

تعتبر الإجازة العلمية من أشهر طرق حمل العلم عند المسلمين وأدقها، فقد صيغت الإجازة في عدة مفاهيم اصطلاحية تتقارب في مدلولها ومفهومها، فقد تعني إذن محدث لغيره أن يروى حديثا،

أو كتابا من كتبه، أو كل كتبته التي يروي بها، أو مؤلفاته من غير أن يسمع ذلك منه أو يقرأ عليه، كأن يقول له أجزتك، أو أجزت لك أن تروي عني (نور الدين، 1979، صفحة 215) .

ويعرفها الإمام الشمني: على أنها إذن في الرواية لفظا أو خطا، يفيد الإخبار والإجمال عرفا، وأركانها أربعة: المجيز، المجاز به، المجاز له، لفظ الإجازة (ابن الصلاح ، 1990، ص57) .

ويأخذ مدلول الإجازة عدة صور تختلف باختلاف الحقل الذي وظفت فيه، ومنها على سبيل المثال:

- **الإجازة عند المحدثين:** كان أهل الحديث الأسبق في الاعتماد على هذا النوع من الشهادة، ويعرفها ابن كثير بأنها احدي طرق التحميل عند المحدثين، وهي الإذن في الرواية، أي إذن الشيخ لتلميذه بأن يروي عنه مسموعاته وإن لم يسمعها منه، أو يقرأها عليه، ويكون عندهم الإذن في الرواية لفظا أو كتابة (الباعث الحثيث ، 1980، ص128)

- **الإجازة عند القراء:** هي رواية الناس لحروف القرآن الكريم، والحديث الشريف، وتعتمد من أفواه المشايخ لألفاظ القران الكريم، أو هي عملية النقل الصوتي والحرفي من جيل إلى جيل، وهي "الإذن للقارئ بقراءة رواية أو أكثر، ويشترط لها المشافهة" (ابن الحسن، 2003).

- **الإجازة في الشعر:** هي أشبه من السقي من مورد ما، بمعنى أن ينظم الشاعر على شعر غيره بمعناه ما يكون به تمامه وإكماله، وقد يكون بين متعاصرين أو غير متعاصرين، فقد شبهوا بذلك عمل الشاعر المجيز بعمل المجاز شعره.

2- نشأة نظام الإجازة عند المسلمين:

ظهرت الإجازة مع بداية تدوين الحديث، واعتمدت منذئذ كوسيلة للتحمل و الرواية، ثم ما لبثت أن توسعت لتشمل مختلف العلوم، ويرتبط منشأها بنهي النبي صل الله عليه وسلم الصحابة عن تدوين الحديث، وهذا خشية أن يقع الخلط بين نصه ونص القرآن، وتبعا لذلك امتنع الصحابة عن ذلك التزاما بنهي الرسول صل الله عليه وسلم (محمد عبد الكريم، 1990، 204)، إلا أنه بعد وقوع الفتنة الكبرى بين المسلمين، تبيّن بأن الاستمرار في عدم تدوين الحديث فيه مخاطرة كبيرة، لاسيما مع اغتنام الزنادقة لهذه الفتنة من أجل وضع الأحاديث المكذوبة، إما خدمة لمذهب سياسي،

أو مصلحة فرقة من الفرق، أو محاربةً منهم لسوية الدين أو أوامر الرسول صل الله عليه وسلم، زيادة على الحرص على عدم انقطاع سلسلة الإسناد والحديث، بدأ تدوين الحديث حتى صار من خصائص الأمة الإسلامية بعد أن كان في البداية يروي مشافهة من الفم للأذن دون أن يأخذ الأمر شكلا محددا بين الرواة (خوليان ريبيرا، 1994، ص119).

ومع توسع مصطلح الحديث وضعت العديد من الطرق والسبل من أجل تطويره، وكانت من بينها الإجازة، التي كانت لها صلة وثيقة بالرحلة العلمية المرتبطة بعلم الحديث (يوسف صبحي صالح ، 1984، ص95)، وأخذت معنى إذن الشيخ لتلميذه برواية مسموعاته أو مؤلفاته، ولو لم يسمعها منه ولم يقرأها عليه، والمميز للمحدثين أنهم أجازوا الطلاب،وأجازوا الغيب عنهم، والأطفال الذين لا يزالون في المهد، وقد نهج الكثير من شيوخ العلم في القرون الأولى نهج المحدثين، وجرت العادة أن لا تمنح الإجازة إلا بعد القراءة على الشيخ المجيز، وملازمته مدة ليست باليسيرة قد تصل حتى بضعة أعوام، حتى يستوعب الشيء المجاز فيه كي تجوز أن تكون شهادة تمنح للمجاز (التعيمي، د.ت، ص192).

ومن أقدم الإشارات للإجازة الشفوية ما رواه "**بشير بن نهيك**": **كتبت عن أبي هريرة كتابا فلما أردت أن أفارقه، قلت: يا أبا هريرة إني كتبت عنك كتابا، أ فأرويه عنك، قال: نعم أرويه عني** (الخطيب البغدادي، 2005، ص101)، وبعدها تطورت الإجازة تدريجيا من صورة شفهية إلى صفة تحريرية أي مكتوبة، ويمتد ظهور هذه الأخيرة إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع للميلادي، وقد اتخذ المشايخ من ظَهر الكتاب الذي درس عليه التلميذ أو طالب العلم كمساحة لكتابة إجازاتهم،وكانت في بداياتها لا تحتوي على طرق الرواية، ولعل لذلك صلة بضيق الفراغ المتوفر على ظهر الكتاب، وجاءت الإجازة مقرونة بدراسات العصر الجديدة، حيث يتولى فيها الشيخ تدريس كتابه وحل جميع المعضلات التي تواجهه والتأكد من صحتها، ومن أقدم الإجازات التحريرية التي وصلتنا إجازة أحمد بن أبي خيثمة الذي أجاز أبي زكريا يحي بن مسلمة، ومما جاء فيها: "أجزت له أن يروي عني ما أحب من كتاب التاريخ ... وأذنت له في ذلك لمن أحب من أصحابه، فإن أحب أن تكون الإجازة لأحد من بعد هذا فأنا أجزت له ذلك بكتاب هذا ... " (فياض، 1976، ص93).

3- الأهمية العلمية للإجازات:

اعتبرت الإجازة منذ القديم من المستلزمات الأساسية للحفاظ على السند والرواية التي لا تكمل إلا بها، حيث كان العلماء يكرسون جهودا كبيرة من أجل هذا العلم، ويتحملون عناء السفر إلى الأقطار والبلدان، ويلازمون الشيوخ والعلماء للحصول على الإجازة، من هنا تكتسب الإجازة أهمية بالغة سواء على صعيد المنظومة التعليمية أو من ناحية أهميتها التاريخية، ومن أبرز النقاط التي تبرز هذه الأهمية:

- تلعب دوراً بارزً في حفظ سلسلة السند وربطها بالمصدر الأول الذي أخذت عنه سواء ارتبط الأمر بالأحاديث النبوية و الشريفة، أو بالكتب المؤلفة التي كانت تعتمد عني التدريس.
- تعتبر من بين الوسائل، التي يتم عبرها انتقال العلوم والمعارف، من جيل الى جيل، كما يمكننا من خلالها تعقب عبر العلماء و التلاميذ الذي حملوها (محمد الفاطمي، 2020، ص30).
- تعد الإجازات بمثابة وثائق تاريخية تمدنا بالعديد من الإشارات حول الحياة العلمية داخل المجال الذي تنتمي إليه، ويمكن من خلالها أن تتعرف على:
  - تراجم بعض شخصيات العصر.
  - المناهج المتبعة في التدريس و مراحل تطورها.
  - الكتب المعتمدة في التدريس في مختلف العلوم.
  - المؤسسات العلمية و الثقافية السائدة في ذلك العصر.
  - لانتقال العلم إلى المجال المدروس.
  - الرحلة العلمية بمختلف أنواعها و اتجاهاتها.

ويعتبر من بين الكتابات العلمية الدقيقة لطبيعتها كالشهادة علمية مقدمة يتخصص بمعاني دقيقة جدًا وتحرفنا بجوانب هامة وتتصل بطبيعتها بدروس وشروح.

– يعود الفضل في الربط بين التراث العربي الأندلسي والمشرقي للإجازة أي حصل نماذج معرفي بين أقطار العالم الإسلامي من خلال رحلات المشايخ والطلبة، حصولها على إجازات بعضهم البعض (أحمد شربيتي، 2021، ص10).

– من خلال تتبع نصوص الإجازات العامية يمكن الوقوف على التطورات الحاصلة في بلد ما سواء نحو التقدم، والتقهقر، إلى جانب مراقبة مؤشر صلاتها العلمية الخارجية الذي يتأثر بمدى تطور الحراك الداخلي.

4– المغاربة ونظام الإجازة العلمية قبل القرن 7 هـ/ 13 م:

على الرغم من أن المصادر تبين بأن الإجازة في المغرب الأوسط يعود إلى ما قبل الفترة التي 7هـ و9هـ (قبل الدولة الموحدية)، إلا أنها لم تشهد ازدهارها وحيويتها إلاّ خلال هذه الفترة، تحت تأثير عدة عوامل، كنمو مؤشر النشاط العلمي خلال هذه المرحلة الناتج عن عودة رحالة المنطقة إلى أوطانهم خاصة في تلمسان وبجاية وتيهرت وغيرها، وتشجيع السلاطين للعلم فيها. وقد أدرك المغاربة أهمية هذه الإجازات منذ بداية انتشارها، وترتبط بدايات معرفتهم بها من خلال رحلاتهم العلمية إلى المشرق، سواء تلك التي كانت متوجهة للحجاز من أجل أداء فريضة الحج، وكان من بين أفرادها من كانت له نية مزدوجة الحج وطلب العلم من كبار شيوخ الحواضر التي يمرون عليه (ابن مرزوق الخطيب،1981، ص334) أو بالنسبة لتلك الرحلات التي كان دافعها الرئيس هو الخروج لطلب العلم ولقاء كبار المشايخ من أجل تعميق المعارف، وتحصيل العلم من كبار أئمته (بوشامة،1991، ص481)، وهو ما كان يستلزم عن الانتهاء من القراءة على أولئك الشيوخ، أن يحصل الطلبة على شهادات تزكية منهم عرفت بالإجازات.

وعلى الرغم من معرفة المغاربة المبكرة نسبيا بنظام الإجازة إلاّ أننا لا نملك تفاصيل كثيرة عنها قبل مرحلة بحثنا هذا، ولعل ذلك يرتبط بعامل رئيس بأن الرحلة الخارجية في هذه الفترة كانت هي الرائجة، ولم يكتفي الناس إلى تحصيلها من علماء بلدانهم، وهو الأمر الذي يفسر قلة نماذج الإجازات التي حملتها لنا المصادر التي تنتمي إلى هذه المرحلة.

وفي ظل هذا الشح المصدري، وافتقارنا إلى مادة كافية عن تفاصيل نظام الإجازة خلال هذه الفترة فسنكتفي بإعطاء عن نماذج لها، ومنها:

- من أوائل الإجازات التي عرفها المغاربة ما اشتملت عليه خزانة الجامع الأعظم ب"تازة" التي ضمت الجزء الأول من جامع الترميذي، وفي أوله كتبت إجازة بخط "الحافظ الصدقي" أجاز له فيها الفقيه "الأمين أبو الفضل مبارك مولى إبراهيم بن عيسى الأنصاري"، قال بعد سماعه له لهذا الصحيح، وهي مؤرخة في جمادى الأولى سنة 506هـ/ 1114 م (عبد الحي الكتاني ، د.ت، ص99)

- إجازة الإمام الصدقي للقاضي عياض وهي مكتوبة بخط المجيز على أصل البخاري له[1]،كما أشار القاضي عياض إلى إجازة التاجر أبو نصر سهل بن علي النيسابوري الشافعي، وقال عنها: **أجاز لي جميع رواياته** (عبد الحي الكتاني ، د.ت، ص100).

- إجازة أبي البركات مودود بن عمر الفاسي السلماسيل ابن الآبار، وعنها قال الأخير: **وكانت له رواية في المشرق، وأجاز لي جميع ما رواه ولم يسم أحدا من شيوخه، وكان ذلك سنة 631 هـ / 1245م** (عبد الحي الكتاني ، د.ت، ص 209).

- إجازة القاضي أبو عبد الله ابن عياض لابن الزبير، حيث ذكرها ابن الزبير في كتابه الذيل، فقال: **أجاز لي، ووصفه بالانقباض، وكرمم النفس، وذكره القاضي أبوعبد الله ابن عياض وسماه لي، وقال الصوفي المحقق، وسمع عليه صحيح البخاري، وذكره الأستاذ الورع الزاهد أبو بكر حميد فيأخذ عنه وسمع منه"** (ابن الزبير، 2003، 204).

تجدر الإشارة أننا استندنا في بحثنا هذا على استقراء النصوص المتصلة بالموضوع بصورة انتقائية مختصرة جدا، من أجل الوقوف على جملة من المؤشرات التي تمكننا من رسم تصور حول طبيعة هذه الإجازات وأهميتها، على غرار ما قمنا به في رصد الأحكام الخاصة بالإجازة، أو في ضبط أشكالها وخصائصها.

خاتمة:

بعد هذه الجولة في مجال الإجازات العلمية بالمغرب الأوسط ما بين القرنين 7-9هـ/13-15م خلصنا إلى مجموعة من النتائج، نتذكر منها:

- اقتضت التقاليد العلمية في الغرب الإسلامي أن يمر مسار التعليم لطالب العلم بعدة مراحل، آخرها وأكملها هي مرحلة حصوله على الأجازة العلمية.
- شكلت الإجازة جزءًا أساسيا من المنظومة التعليمية في المغرب الأوسط خلال مرحلة الدراسة، ولم تكن عبارة عن شهادة يشهد بها المجيز على أصلية المجاز فحسب، بل كانت نظامًا قائمًا بذاته له شروطه، وأركانه، وهيكل عام يبنى عليه ويستند إليه.
- لم يخرج حضور الإجازة في الحياة العلمية بالمغرب الأوسط ما بين القرنين 7-9هـ/13-15م عن السياق العام الذي كان منتشرا في العالم الإسلامي ككل، لاسيما فيما يتعلق بأنه كان يرتبط في مجمله بالعلوم الدينية بالدرجة الأولى.
- ساهمت عدة عوامل في ازدهار وحيوية الإجازة والرحلة الأدبية والعلمية ككل، كنمو مؤشر النشاط العلمي خلال هذه المرحلة الناتج عن عودة رحالة المنطقة إلى أوطانهم خاصة في تلمسان وبجاية وتيهرت وغيرها، وتشجيع السلاطين للعلم والفكر فيها.
- تمثل الإجازات العلمية وثيقة تاريخية بامتياز، حيث أن الاطلاع على مضمونها يمدنا بإشارة هامة حول الحياة الثقافية حول المرحلة التي تنتمي إليها، مثل أبرز أعلام هذه المرحلة، والكتب المدرسة، ومناهج التدريس، والعلوم المتداولة والصلات العلمية.
- أسهم سعي الطلبة والعلماء إلى الحصول على الإجازات العلمية خاصة الذين سعوا منهم للوصول إلى مصادرها الأولى، في تنشيط العلاقات الثقافية للمغرب الأوسط المختلفة، وشكلوا في الوقت نفسه قتلة لانتقال وتبادل العلوم والمعارف، ووسيلة لنقل الصدى العلمي لنخبة البلدان.
- إن الإجازات المتبادلة بين علماء المغرب الأوسط و علماء الأندلس والمشرق الإسلامي وضحت لنا خطورة التساهل في منح الإجازات بمرور الزمن، وأكدت لنا بأنه مقياس

يعكس الصورة الحقيقية للأوضاع التي كان يعيشها العالم الإسلامي خاصة الجانب الفكري.

قائمة المراجع:

1. ابن الحسن الأزدي الحزرابي: بدائع البداية، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1428هـ/2007م).
2. ابن الزبير، تح: إحسان عباس محمد بن شريفة، الذيل والتكملة، (تونس: دار الفكر الإسلامي، 1433هـ/2012م).
3. ابن الصلاح: ، تح: نور الدين عتر، علوم الحديث، (بيروت: دار الفكر المعاصرة، (دت)
4. ابن مرزوق الخطيب، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، (الجزائر: دار الغرب الاسلامي، 1401هـ / 1981 م).
5. أحمد شربيتي، الإجازة العلمية والتأليف بالمغرب الأوسط مابين الفترتين 8-10هـ/14-16م،(خميس مليانة :جامعة الجيلالي بونعامة ، 2021/2020م).
6. الخطيب البغدادي:، تح: سعد عبد الغفار علي دار الاستقامة، تقييد العلم، (القاهرة: 1429هـ/2005م).
7. عاشور بوشامة: علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس (626 .981 هـ/ 1128 . 1573 م)، (القاهرة: جامعة القاهرة ، 1991هـ /1411م.)
8. عبد الحي الكتاني: فهرسة الفهارس، بيروت: دار المنهل، د.ت)

9. عبد الله فياض:الإجازات العلمية عند المسلمين،(بغداد: مطبعة الارشاد،1387هـ/1967م).

10. محمد عبد الكريم: منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب، (بنغازي: دار الكتب الوطنية، 1410هـ/ 1990م).

11. نور الدين عتر: منهج النقد في علوم الحديث، (دمشق: دار الفكر، 1399 هـ/1979م)